علمتنيه المدارس من روسية وغير روسية. ولكنني ما نسيت ولن أنسى بلاداً هي روسيا وشعباً هو الشعب الروسي. وما أدري أيّ شيء في تلك البلاد صادف أبعد الهوى في نفسي، فكان له مثل فعل السحر في فكري وقلبي وروحي.

من الأكيد أن ذلك «الشيء» ما كان أمراً بسيطاً تسهل الدلالة عليه بإصبع أو ببرهان. بل كان مركباً من عناصر كثيرة بعضها حسّي وبعضها معنوي. ومن أهم عناصره الحسيّة ذلك المدى اللامتناهي الذي يجعل المسافر في روسيا يشعر كما لو كان في بلاد تتاخم الأزل والأبد. وهو غير المدى الذي يحسه المسافر في الصحراء. فالمدى الصحراوي، طال أم قصر، مدى جاف، ساحق، غدّار، جيّاش بالمخاوف والأخيلة المزعجة. إذا انبسط فيه النظر انكمش القلب، أو انطلق فيه الخيال انحبست النفس. في حين أن المدى الذي أحسسته في روسيا، وبالأخص في منطقة «أوكرانيا» حيث كنت أدرس، كان مدى يفيض بالفتنة للعين، وبالأنس للقلب، وبالغواية للخيال. فيه الحقول السخيّة، والمروج الخضر، والغابات البكر، والأنهر الدفّاقة، والسماوات الرفيقة ـ لا هي في الصيف صفائح من النحاس المحمى، ولا هي في الشتاء قباب من الجليد. وأنت إذ تحسّ ذلك المدى السحري في بلاد الروس، تحسّ ما يماثله في